هتاف الجماهير

للأستاذ عبد الحفيظ نصار

(هتاف الجماهير) للأستاذ أمين يوسف غراب ، ومجموعته تشتمل على خمسة عشر قصة لن يتسع لى المجال للتعرض لها كلها ، وأعتقد أن مجموعته فى الطليعة عند ما يصح أن نختار قصصاً نضعها بكل فخر جنباً إلى جنب مع القصص الأجنبية القوية ، كما أنها تتسم جميعاً بأسلوب بارع الوصف ، كما أن الكاتب متأنق فى اختياره لألفاظه أناقة محببة غير متكلفة ، ويأخذك من تعبيراته عطر قوى نفاذ . . . لعله عطر المرأة التى تأخذ دوراً هاماً فى أكثر قصصه . وإليك قصة (طريق الدنس) وهى قصة امرأة ناضرة ناضجة شغل عنها زوجها بسهراته خارجا — فماذا قالت لنفسها وماذا قالت المرآة لها فى خلوتها ... فكرة بسيطة فى حوادثها .. ولكنى أؤكد أنها فى تحليلها لمواطف المرأة لا تقل عما يكتبه مارسيل بريفو ، وفى قوة وصفها تقف بكل فخار بجوار قصص موباسان . ليس فى القصة حوادث أو حركة كبيرة بل تعتمد على (الحركة النفسية) التى هى موضوع القصة . وذلك شأن القصص الروسية الخالدة التى نعتبرها مثالا فى القصص العالمية .

كذلك قصة (الأستاذه) وهى محامية كتبت عواطفها الحارة كامرأة ، وتجاهلت نضج ثمارها كشجرة يانعة ، فأخفت تلك العواطف وتلك الثمار ، تحت رداء المحاماة القاتم ، وتكلفت الجد الذى هو بعيد كل البعد عن طبيعتها المشرقة ومضت فى الحياة عاملة كرجل ... ولكن إلى متى يمكنها أن تمضى متجاهلة النداء ؟

وأما قصة (البلبل والحمامات السبع) فتصور حياة سبع مدرسات فى مدرسة إقليمية شاءت مديرتها أن تجعل منها ديرا منعزلا عن الحياة والأحياء — وعلى الأخص ذلك الجنس الآخر مصدر الشر وهو الرجال — فيعشن فى سلام معيشة الراهبات . وليست العبرة عند الكاتب فى حوادث القصة . ولكنه يعالج فكرة قد تظهر بساطتها عند تلخيصها . ولكنك ترى عمقها فى تحليله وروعتها فى عرضه . كما أنه يرتفع فى وصفه فى هذه القصة إلى درجة عالية من البيان ، وقد وصف لنا الرئيسة بتحليلا نفسيتها بأنها امرأة حلت الأيام مشاكلها مع الزمن على حسابها ، خلقة مشوهة دميمة وصوت أجش بغيض وعينان ضيقتان أكل الحقد أهدابهما ولم يبق منهما سوى نظرات تارة حادة لا تكاد تعكس مرئيات الأشياء على عينيها أبدا وإنما تعكس صفحة وجهها المشوه على خاطرها فتراه دائما وتراه مقترنا بسلسلة تلك المصائب التى جرها عليها هذا القبح طيلة الأربعين سنة التى قضتها فى دنياها الشقية ..) فهى لا تكاد تطيق رؤية الفتيات السبع يخطرن أمامها فى مرح وسعادة ملء إهابهن الحب والأمل ، ومن ذلك يفسر لك قسوتها عليهن وتزمتها فى معاملتهن وأخذهن بالتقشف الشديد المر حتى نسين الشباب والابتسام .

وأما (البلبل ...) فهو ذلك العامل الذى تضطر المدرسة الضرورة لاستدعائه من المدينة لبعض الاصلاحات لبضع ساعات ثم تحتال الحمامات على إطالتها إلى ليلة ... وقد تيقظ الفتيات كما تتفتح الزهرات لأنداء الربيع ، حتى تلك الزهرة الذابلة .. الناظرة . وإنى لأحس بأننى أظلم القصة عندما أحاول أن أعطى منها صورة فلا أستطرد فى ذكر ما كان . ولكن أحب أن أقول إنها ذكرتنى بقصة (ستة وعشرون رجلا وامرأة ...) لمكسيم جوركى . والبلبل هنا امرأة ، وعند قصاصنا فتى ، ولكنها لا تشبهها فى شىء من الحوادث أو طريق المعالجة ولكن فى بعض الخطوط الرئيسية فى الفكرة النفسية وهى شىء يتشابه فيه البشر فى كل مكان .

ولكن يختلف الكتاب فى تصويره . وله إلى هذا بعض قصص اجتماعية يصف فيها الريف بصميم تقاليده وعميق إحساس أفراده إلى بساطة وسذاجة هما طبائع أهله ، وقد دل على معرفة ودراسة لأحوال الريف قلما تجدها صادقة فى غير تكلف كما تجدها فى قصص الأستاذ أمين . ومن هذه القصص (الفطائر الثلاث) . ومن أمتع قصصه (مفاتيح الأقفال) وإنه لعنوان رمزى لما استغلق من المرأة ، وما المفاتيح إلا الأنسان الذى جعلها تلبى نداءه فى أحضان الشيطان . وإنها لمأساة قد يخيل إليك أن الكاتب يصورها بألوان زاهية فاقعة . ولكنه فنان يعرف كيف يتصرف فى هدوء حتى بالألوان الحمراء ....

وقصة (هتاف الجماهير) ليست هى القصة الأولى فى المجموعة

كما اعتاد بعض كتابنا فى تسميتهم المجموعة باعظم قصة فيها ؛ بل هناك قصص أخرى تعلوها . وهى مع هـــذا ذات نزعة رومانسية عنيفة وتجمع إلى هذا جانب التهكم اللاذع وعلى الأخص فى الخاتمة ، والخاتمة عند أمين كأبسط وأروع ما يمكن أن تكون التفاتة بسيطة ذات دلالة عميقة تكفى عنده لأن تكون عقدة القصة . وقصة (طريق الدنس) التى عرضنا لها تعتبر مثالا عاليا لذلك . وتوجـــد عنده عدة قصص يصور فيها شخصية (البروجوازى) كما يسميه الاشتراكيون ، أذكر له قصة اتفق لى أن قرأتها له فى إحدى المجلات ولا أدرى لماذا لم يضمها إلى هذه المجموعة وهى (الحلوى السمومة) فقد صور فيها مدى استغلال البروجوازى لعماله . وقد تعدى ذلك لأعراضهم ، وله فى تصوير هذه الشخصية فى هذه المجموعة قصة (صفقة رابحة) و (السيد) وإنه ليعطينا صورة لا تقل عظمة عن تمثيلية (السيد) لموليير وإن كان هذا نموذج للسيد المصرى وفرق كبير بين السيدين . أقلهما البيئة وعواملها مع المزاج والثقافة . كما يوجد فرق كبير بين الكاتبين فى طريق المعالجة .

ويصدر الأستاذ أمين مجموعته بقصة (أفراح السماء) ، وهى قصة إنسانية عالية تصف الطفولة وتشردها . قصة طفلة تتصور جوعا باحثة عن لقمة ، تهديها حاستها أو معدتها إلى بائع طعمية تقف أمام دكانه تستنشق رائحتها المحببة ، ولا تسل عن خواطرها حينئذ ، ولا عن تصوير الكاتب لها ، ولكنها أخيراً تتشجع وتطلب منه واحدة ؛ فإذا بصاحب المحل الرجل الضخم يجيبها بصفعة هائلة فلم تولول ولم تتألم طويلا فقد تعودت مثل ذلك وكان أن جففت دموعها ، ولملمت أشلاءها ، وابتعدت عنه قليلا حيث واراها الظلام ، وحيث أسندت رأسها المثقل جالسة على الرصيف بعد أن اطمأنت على مكان كوز أعقاب السجاير بين ركبتيها . وابتدأت قصة حـــلم رائع إذ تقدم منها شاب وسيم شكت إليه جوعها فحملها إلى أحد القصور التى يعلو وصفها على قصور ألف ليلة وليلة ، وكان أن رأت هناك استقبالا واحتفاء ، وما كلا ونعيما وسعادة بجوار ذلك الشاب الوسيم ما كانت لتحلم به أو لتفكر فيه يوما فتتمتم شاكرة له : إنك لملك كريم . وبعد فراغها من حلمها اللذيذ يكون قد جاء الصباح وعاد صاحب محل الطعمية جلادها بالأمس إلى محله ؛ فيجد هذه قريبة منه فتأخذه بها شفقة بعد أن تذكر ما كان منه بالأمس ؛ فيحركها موقظا لها فإذا بها جثة هامدة ! ! ترفرف روحها فى السماء . وهذه القصة تذكرنى بقصة (بائعة الثقاب) لهانس أندرسون الكاتب النمساوى ، وهى أيضا حلم طفلة تصورت طوال يومها جوعا فى البرد وفى ليلة عيد الميلاد ومع ذلك لم تبع شيئا من أعواد الثقاب التى تحملها فخافت أن تعود إلى أبويها ؛ فجلست بجوار جدار وجعلت تستنشق رائحة الأوزة التى تشوى خلف جدار ذلك المنزل وتركت خيالها يدور حول ما فيه من طعام ، وأخذت بوطأة البرد فجعلت تدفىء أطرافها باشعال أعواد الثقاب ، وعلى ضوئه ابتدأت قصة حلمها فقد رأت جدتها الميتة التى كانت تحنو عليها وتحبها كل الحب وصارت تستنجد الجدة أن تأخذها عندها وأخيرا تستجيب لتوسلاتها . وفى الصباح ترى طفلة ميتة مرتكنة على جدار منزل ، وما برح شفتيها ابتسامة الرضى ؛ فقد كانت تنعم هناك قرب جدتها ، ومع تقارب الفكرة فى القصتين فلكل منهما طريقته وأسلوبه ولعل قصة أمين لا تقل روعة عن قصة هانس أندرسون

ولعل كاتبنا أبعد الكتاب تأثرا بالصور التى يأخذها للحياة عن طريق الثقافة بل يلجأ إلى الحياة نفسها ويتغمر بمشاعره بين شخصياتها إذ للكاتب معالجاته الكثيرة فى الحياة وصوره التى لا تنفد من فصولها ونماذجها الإنسانية التى تحس بحرارة حياتها ولفحات أنفاسها . بل تحس بأجوائه الشعرية العاطرة كأنك تعيش فيها .

بقى أن أقول إن مجموعته جديرة بأن يحتفل بها قراء العربية وأن كاتبها جدير بأن يحتفل به نقاد الأدب والقصة إذ فى إنتاجه دليل على حيوية فى القصاص المصرى ، وأمل كبير فى أن تزاحم قصصنا الإنتاج القصصى العالمى . وما أحسبنى مغاليا فيما أقول .

(دمنهور) عبد الحفيظ نصار

أحدث المطبوعات

قضية الجمال والحب

بقلم

الأستاذ محمد عبد الجواد الساعى

تحليل فلسفى عن خبرة شخصية وآراء

من يسول على آرائهم من الفلاسفة

الثمن ١٥ قرشاً

الناشر مكتبة الفكر الحديث بالاظوغلى